

أضواء البيان

. . @ 126 @

فقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : { أَوَ مَن كَانَ مَيِّتًا } ، أي : كافرًا فأحييناه ، أي : بالإيمان والهدى ، وهذا لا نزاع فيه ، وفيه إطلاق الموت وإرادة الكفر بلا خلاف ؛ وكقوله : { لَّيُّنْذِرَ مَن كَانَ حَيًّا } وَيَحْيِي الْقَوُولُ عَلَى الْكَافِرِينَ { ، وكقوله تعالى : { وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَالْأَمْوَاتُ } ، أي : لا يستوي المؤمنون والكافرون . .

ومن أوضح الأدلة على هذا المعنى ، أن قوله تعالى : { إِنَّ زَكَّ لَ تَسْمِعُ الْمَوْتَى } الآية ، وما في معناها من الآيات كلها ، تسلية له صلى الله عليه وسلم ، لأنه يحزنه عدم إيمانهم ، كما بيّنه تعالى في آيات كثيرة ؛ كقوله تعالى : { قَدْ زَعَلِمُ إِنَّ زَكَّ لَيَحْزَنُكَ } الْذِي يَقُولُونَ { ، وقوله تعالى : { وَلَقَدْ زَعَلِمُ أَزَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ } ، وقوله : { وَلَا تَحْزَنُ عَلَيْهِمْ } ، وقوله تعالى : { فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوَمِ الْكَافِرِينَ } ، وكقوله تعالى : { فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ } حَسَرَاتٍ { ، وقوله تعالى : { فَلَا عِلَّاكَ بِأَخِي } نَفْسُكَ عَلَى أَعْيُنِهِمْ إِنَّ لَّيُّمٌ يُؤْمِنُوا بِهِ أَذًا الْخَدِيثَ أَشْفَاءَ { ، وقوله تعالى : { لَعَلَّاكَ بِأَخِي } نَفْسُكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ { ، إلى غير ذلك من الآيات ، كما تقدّم إيضاحه . ولما كان يحزنه كفرهم وعدم إيمانهم ، أنزل اللّهُ آيات كثيرة تسلية له صلى الله عليه وسلم بيّن له فيها أنه لا قدرة له صلى الله عليه وسلم على هدي من أضلّه اللّهُ ، فإن الهدى والإضلال بيده جلّ وعلا وحده ، وأوضح له أنه نذير ، وقد أتى بما عليه فأنذرهم على أكمل الوجوه وأبلغها ، وأن هداهم وإضلالهم بيد من خلقهم . .

ومن الآيات النازلة تسلية له صلى الله عليه وسلم ، قوله هنا : { إِنَّ زَكَّ لَ تَسْمِعُ الْمَوْتَى } ، أي : لا تسمع من أضلّه اللّهُ إسماع هدى وقبول ، { وَمَا أَنْتَ بِهِ هَادِي الْعُومَى } عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ، يعني : ما تسمع إسماع هدى وقبول ، إلّا من هديناهم للإيمان بآياتنا { فَهُمْ مَّسْلُمُونَ } . .

والآيات الدالّة على هذا المعنى كثيرة ؛ كقوله تعالى : { إِنَّ تَحْرِصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ } ، وقوله تعالى : { وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا } أُولَئِكَ الَّذِينَ

لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرَ قُلُوبَهُمْ لَهْمُ { ، وقوله تعالى : { إِنَّكَ لَا
تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَا كَيْنَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ { ، وقوله تعالى : {
أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ
أَنْ تُوْمنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا
يَعْقِلُونَ { ، إلى غير